فيما يُحْمَل عنهم ، مَشْئُومًا على الجارية (١) فيما انتُزع منها ، قال له هشام : ياكنانىّ ، لايَرجع إلىّ شئ خَرج على هذه السبيل عَنىِّ ، خُذه مبارَكًا لك فيه ، وسيُعوضه الله الجارية خيرًا منه .

(ولاية الحكم بن هشام)

وكان الأَمير الحكم بن هشام ، رحمه الله ، شجاعًا حازما مظفَرًا فى حُروبه ، أَطفأَ نيران الفتن بالأَندلس ، وكَسر فِرَق(٢) النِّفاق ، وأَذَلّ أَهل الكفر فى كل أُفق ، وكان مع نجدته وعزَّة نفسه متواضعًا للحق ، منقادًا للإِنصاف من نفسه فضلا عن ولده وسائر خاصته ، يتخير لأَحكامه أَورع مَن يقدر عايها (٣) وأَقضاهم للحق .

وكان له قاضٍ قد استكفاه (٤) أُمور رعيته ، لفضله (٥) وزُهده وورَعه ، وذُكر أَن الذى آثره به وعظَّمه عنده ، أَن رجلاً من أَهل كُورة جيَّان اغتصبه بعضُ عُمَّال الحَكم جاريةً له ، فلما عُزل العامل عَمِل فى تَصيير الجارية إلى الحَكم ، فلما صارت عنده ، واتصل بالرَّجُل المَغصوب حالُ القاضى فى أَحكامه ، واستخراج الحُقوق للرعية من يدى الحَكم وأَهل خاصته ،أَتاه وشَرح له خبره ، فدعاه إلى إقامة البيِّنة ، تَشهد(٦) له من قبل عِلْمه ، على المعرفة فيما قال به وتَظلَّم منه ، وعلى معرفة عين الجارية ، فأَوجبت البَيِّنة (٧) أَن تُحْضَر الجارية ، فاستأذن القاضى للدخول على الحَكم ،

---

(١) مشئوما على الجارية : كان عليها شؤما .

(٢) الأصل : « فروق » .

(٣) الأصل : « عليه » . وانظر العقد الفريد (٤ : ٤٩٠ — ٤٩١) .

(٤) العقد : « كفاه » .   (٥) العقد : « بفضله » .

(٦) الأصل : « فشهد » . ولا يستقيم بها الكلام .

(٧) الأصل : « السنة » . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

فلما صار عنده ، قال : إنه لا يتم عَدل فى العامة دون إفاضته فى الخاصة ، وحكى له أَمْرَ الجارية ، وخيره فى إخراجها وإبرازها للبَيِّنة(١) ، أوعَزله عن القضاء ، فقال : أو خيرٌ من ذلك : تُبتاع من صاحبها بأنفس ثمنها ، وأبلغ مايسأله فيها ، قال : إن الشُّهود قد شَخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه ، فلما صاروا بفنائك تَصرفهم دون إنفاذ الحق لأَهله ، فلعل قائلاً أَن يقول : باع مايَملك (٢) بَيْع مُقْتَسر على نفسه ، ولابد من إبراز الجارية ، أَو تُصَيِّر أَمْرَك إلى من أَحببت ، فلما رأَى عزمه أَمر بإخراجها من قَصره ، وقد كانت وقعت من نفسه مَوْقِعًا ، فشهد (الشُّهود) (٣) على عينها ، وقُضى بها لصاحبها ، ثم قال له : إياك وبيعها إلا فى بلدك لِتَقْوَى بذلك الرعيَّة على طَلَباتهم ، وبَيعتهم (٤) على اسْتخراج حُقوقهم .

فلما تُوفى ذلك القاضى اكتأَب الحَكَم لمُصابه ، وجَزِع على وفاته فحُكِي عن عَجَب ،جاريته، قالت : إنى لفى الليلة التى أُعلم فيها بوفاة القاضى عنده بائتة ، فلمَّا كان فى جَوف الليل فقدتُه عن مضجعه ، فخرجت أَطلُبه ، فإذا هو قائم يصلِّى فى دُكان (٥) الدار ، فقعدت فيما يَليه أَنتظره ، فسَجد سجدةً أَطالها حتى غَلبتْنى عيناى ، ثم انتبهتُ فإذا هو ساجد على مثل حالته ، ثم غلبتنى عَيناى ، فما راعنى إلا وهو يُحرِّكنى لانْصداع الفجر ، فأَقبلتُ عليه أَسأَله : ماالذى أَقلقه عن

(١) الأصل : « للسنة » ، ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .
(٢) الأصل : « ما لم يملك » . وما أثبتنا من العقد.
(٣) التكملة من العقد.
(٤) كذا .
(٥) الدكان : المصطبة .

فراشه ؟ قال : خَطْبٌ عظيم ، ومُصاب جَليل ، كنتُ قد تَفرَّجْتُ من من أُمور الرعية بالقاضى الذى كان الله قد كَفانى به ماكفانى ، فخشيتُ ألا أُصيب منه خَلفًا ، فدعوت الله ، عزّ وجلّ ، أَن يُوفق لى قاضيًا مثلَه أَجعله بينى وبين الناس ، فلما أَصبح دعا بوزرائه ، ثم قال لهم : تخيروا للرعيَّة من يتولى الحُكم فيهم ، وأَستعين به على ماقلدتُه من أُمورهم ، فدلَّه (١) مالكُ بنُ عبد الله القُرشى على مُحمد بن بَشير (٢) ، وكان كاتبًا له بِبَاجَة ، لِمَا فَهِم من فضله ، واخْتَبره من ورعه ، فوقع بنَفس الأَمير الحَكَم ، ووُفِّق لولايته .

فلمَّا أَن ولاه فَضل جميعَ من تقدمه عدلاً وَوَرَعًا وزُهدًا ، ولم يَدع التَّمادى على ماكان عليه من هَيئته ونظافة ملبسه ، كان يَخرج إلى المسجد ويَقعد للحُكْم فى إزار مُورد ، ولِمَّة مُفَرَّقَة ، فإذا طُلب ماعنده وُجد أَفضل الناس وأَورعهم وأَزهدهم .

وأَتى رجلٌ من بعض الأَطراف إلى المسجد الجامع يسأَل عنه ، وكان فى زيه الذى ذكرنا ، قاعدًا ، فمال إلى حَلْقة يسأَلهم عنه ، فدُلّ على الحلقة التى كان فيها ، فلما أَتاه ووقف عليه رَجع إلى القوم فقال لهم : إنى — رحمكم الله — توسَّمت الخير فيكم ، وقصدتُكم فصِرْتم تهزأون بى ، دَللتمونى على عَزَّاف(٣) ، غَرَرْتُمونى ، قالوا : لا والله ، ماغَرَرْناك ، وإنه للقاضى ، تقدَّم إليه فستجد عنده أَفضل مايَسُرك .

---

(١) الأصل : « فدل ».

(٢) الذى فى العقد أن القاضى السابق كان اسمه : سعيد بن بشير ، وفيه أنه كان الموصوف بهذا الذى ذكره المؤلف هنا .

(٣) كذا ، والعزاف : من حرفته العزف .

فلما وقف به أدناه من نفسه ، ثم باحثه عن مطالبه ، فوجد منه ماأنس إليه وتَفرَّج به ، فَرجع عنه إلى القوم ، فقال : جُزيتم خيرًا ، فوالله لقد صادفتُ أكثر مما أمّلتُ .

وكان عبّاسُ بنُ عبد الله بن مروان القُرشيّ من الخاصة بالأَمير الحَكَم ، والمَنزلة عنده ، بحيث لم يُدانِه أَحدٌ فى زمانه ، فأَقام (١) عليه رجلٌ فى ضَيعة كانت له تَحت يده ، فأَثبتها عند ابن بَشير القاضى ، فلما علم القُرشى بأَن القاضى (عزم) (٢) على أن يوجِّه الحُكم عليه عاذ بالأَمير الحَكم ، واشتكى إليه ماناله من القاضى ، وسأَله صَرْفه عنه إلى غيره ، وجعل يَتوّبغه (٣) ويقع فيه ، فقال له الحكم : إنْ كان حقًّا ماتقول فامْضِ بنفسك إليه ، وهو غير قاعدٍ للحكم ، فإن أَخْلاك نَفْسه وأَدخلك عليه ، فقد صدَّقناك وعزلناه ، فقال : أَفعل .

فَوَكل به الأَميرُ الحَكَمُ بعضَ فتيانه ليمتحن مايكون من القاضى ، فخرج القُرشى ، والأَزقّةُ تَغصّ بموكبه ، حتى أَتى باب القاضى ، فَقرع الباب ، فخرجت إليه عجوز له ، فأَعلمها بنفسه ، وأَمرها أَن تستأذن له عليه ، فلما عِلَم به نَهر العَجوز ، وقال لها : قُولى له : إن كانت لك حاجة فَتكُن فى المسجد مع طُلاب الحوائج حتى أخرج إليك ، فليس إلى إدخالك من سبيل ، فتردَّد عليه وأَلحف ، فلم يأذن له ، فَرجع الفتى إلى الحَكَم فأَعلمه بما كان من القاضى ، فطار به سُرورًا .

---

(١) الأصل : فقام . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٢) بمثل هذه التكملة يستقيم الكلام .

(٣) يتوبغه : يعيبه ويطعن عليه ، والمسموع : وبغه يبغه وبغا .

وَوَفد على الحَكَم ، رحمه الله ، رجلٌ من بعض أطراف ثغوره من ناحية لَبْدانية (١) ، فسأله عن الثغر وحاله ، فذكر خَرْجةً كانت للعدو عليهم ، وأنه سمع امرأةً تَصيح بأعلى صوتها : واغوْثاه بك ياحكم ، فلقد غَفَلْتَ عنا حتى تركتنا نَهْبًا للعدو ، فأحفظه ذلك ، فتجهز فى وقته ، وخَرج بنفسه حتى أتى ذلك الثَّغر ، فأمكنه الله من العدو فى ناحيته وأظفره (٢) عليهم ، فافتتح المعاقل ، وأصاب الأسرى ، ثم خَرج قافلاً وقال للوافد عليه : دُلَّنا (٣) إلى مَوضع المرأة التى سمعتَها صارخةً ، فقصد به نحوها ، فلما خَرجت إليه دفع إليها عدَّة من الأَسرى تُفادى بهم من أُسر من أَهلها ، وضَرب أَعناق الباقين فى حَضرتها ، ثم قال لها : أَغاثَك الحَكَمُ أَم غُفَل عنك؟ قالت : لا ، بل أَغاث ونصر ، فنَصره الله وأَغاثه (٤) .

وأَتاه الخبرُ أَن جابر بن لَبيد (٥) يُحاصَر بجيَّان (٦) ، وهو فى الحائر (٧) مع فُرسان من خواصه يلاعبونه على خَيلهم .

وكان له (٨) أَلفا (٩) فرس مُرتبطة على شاطئ النهر (بإزاء) (١٠)

---

(١) الأصل : « لجدانية » ، وانظر الحاشية (رقم : ٣ ، ص: ٥٨) .

(٢) الأصل : « وأظفر » . (٣) الأصل : « دل بنا »

(٤) وانظر البيان المغرب (٢ : ٧٥) فثمة خلاف .

(٥) وانظر نفح الطيب للمقرى (٤ : ١٦٧) .

(٦) »العقد الفريد (٤ : ٤٨) : « يحاصر جيان » .

(٧) كذا . ولعله يريد بستانا كان للحكم . والذى فى العقد : « وهو يلعب بالصولجان فى الجسر » .

(٨) له ، أى للحكم . (٩) العقد : « ألف » .

(١٠) بمثل هذه التكملة يستقيم الكلام .

القصر ، تجمعها داران ، على كل دار عشرة عُرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فالعُرفاء يُشرفون عليها وتُعلف بين أَيديهم ، ويَنظرون فى تَعويض ماتَعذر منه (١) لتكون معدَّة قائمة لما عَسى أن يُفجأ من أَمر يُفزع إليه بها ، فإذا كانت حركة كانوا كَنَفْس واحدة .

فدعا بأَحد أُولئك العُرفاء ، فلما مثل بين يديه أَسرَّ إليه بالخروج إلى جيَّان إلى ابن لَبِيد من وقته فى عِرَافته ، وأَمره أَلا يُعرِّف أَحدًا وَجه طريقه ، ثم عاد إلى لهوه ، فلما مضت ساعة دعا بثانٍ من عُرفائه ، فأَسرّ إليه بمثل ذلك ، ودعا عشرة ، فخرجوا متتابعين ، لايعلم أَحدٌ منهم بقَصد صاحبه ، حتى تساقطوا على ابن لَبِيد فى اليوم الثانى من لَدن أَصبح إلى الليل ، فلما رأَى ذلك عدوُّه سُقط فى أَيديهم ،وظَنوا أَنه قد أُحيط بهم ، وأَن أَقطار البلاد منسوبة إليهم (٢) ، فولوا منهزمين من وقتهم ، فاستباحتهم الخيلُ وأَصاب عسكرهم ، فأَتت الرُّؤوس إلى الثالث(٣) ، والحكم مع مواليه فى الحائر ، لايعلم أَحدٌ منهم بمعنى الخَبر حتى أَنبأَهم به .

وحُكى عن (٤) الحكم أَنَّه لما قام عليه أَهل الرَّبض ، وراموُا خَلعه ، وكانوا شَوْكة عسكره، وعُظماءَ أَهل بلدته، إلتزم الصَّبر فى مُكافحتهم ، وثَبت على مناجزتهم ، فلما اشتدَّت الحرب ، واستحر (٥) القِتال والقتل

---

(١) كذا . ولعله يريد : ما تعذر من العلف .

(٢) العقد : « قد حشرت لديهم » .

(٣) أى الثالث من الأيام . (٤) الأصل : « من » .

(٥) الأصل : « واستحرت » .

دعا بغالية تَغلَّل (١) بها ، وبمِسْك فذرَّه على مَفارق رأسه ، فقال له يَزنت، فتاه : أهذا يوم طيب ياسيِّدى ؟ فانتهره وقال : هذا يومٌ وَطَّنت نفسى فيه على الموت أَو الظَّفر بعدوى ، فأَردتُ أَن يُعرف رأْس الحكم من بين رُؤوس من يُقتل معه .

وكَتب إليه عاملُه على ماردة يُعلمه عن خارج من أَهل بَربرها على الرعية ، ويستأذنه فى حَربه .

فحكى بعضُ عرفاء الحكم ، قال : دَعانى ، ولاأَعرف بما كتب إليه به العاملُ ، وقد كنتُ عارفًا باسم الرجل ، فدخلت عليه وهو قاعد على سكون ودَعة (٢) فى بعض الصُّحون ، فقال لى : أَمجتمعون أَصحابُك ؟ قلت : نعم أَكرم الله الأَمير ، قال : أَتعرف فلانًا ؟ قلت : نعم ، قال : فأْتنى برأْسه وإلا والله فرأْسك مكانه ، وخُذ من الحَرب فى أَجدِّ ماأُخذ قط ، فلما ولَّيتُ نادانى ، فانصرفت (إليه) (٣) ، فقال : إنِّى غير بارحٍ من مَقعدى هذا منتظر لك ، فتعجَّبت من تأكيده علَّى وتحذيره لى ، وخرجتُ من فَوْرى ذلك حتى قَدِمْتُ عليه ، فوجدته متحرِّزًا ، صَعْبَ المرام ، فما أَعلم أَنى لقيتُ من شدَّة الحرب فى أَحد مالقيتُ فيه ، ولقد كدْتُ(٤) أَهمُّ بالانحلال منه ، فإذا ذكرت قوله : وإلاّ فرأْسك والله مكانه ،

---

(١) الغالية : أخلاط من الطيب . وتغلل بها : تطيب . .

(٢) جاءت هذه العبارة « على سكون ودعة » فى الأصل متقدمة ، وبعد قوله : « الرجل » .

(٣) بمثل هذه الكلمة يستقيم الكلام .

(٤) الأصل : « كنت » .

لم أَجِدُ بدًا من مُناجزته ، حتى أظفرنى الله به ، فقدمتُ إليه برأسه فى اليوم الرابع ، فوجدته قاعدًا فى المكان الذى فارقته فيه .

فأَخبرنى (١) الفِتْيان أنه لم يَقُم عنه بعد مُفارقتى إياه إلا لوضوء أو صلاة .

ومن شعره الذى قاله بعد وقعة الرَّبض :

رأَبْتُ صُدوعَ الأَرض بالسَّيف راقعًا ... وقِدْمًا لأَمْتُ (٢) الشّعْبَ مذ كنتُ يافعَا

فسائِل ثُغورى هل بها اليوم ثُغرةٌ ... أُبادرها مُسْتَنْضِىّ السَّيف دارِعَا

وشافِه على (٣) الأَرض الفَضاء جَماجمًا ... كأَقْحاف شَرْيان الهَبِيد لوامعًا (٤)

تُنَبِّئْك أَنى لم أَكن فى قِراعهم (٥) ... بِوَانٍ وقِدْمًا (٦) كنتُ بالسَّيف قارعَا

وأَنى إذا حادُوا جَزوعًا (٧) من الرَّدَى ... فلم أَكَ ذا حَيْدٍ من المَوت جازِعَا

حَمَيْتُ ذِمارى فانتهبْتُ ذِمَارَهم ... ومن لايُحامِى ظَلَّ خَزْيَانَ ضارِعَا

ولمَّا تَساقَيْنَا سِجَالَ حُروبنا ... سَقَيْتُهُمُ (٨) سُمًّا من الموت ناقعًا

وهل زِدْتُ أَن وَفَّيْتُهم صاعَ قَرْضِهم ... فوافَوْا مَنايَا قُدِّرَتْ ومَصارِعَا

فهاكَ بِلادِى إننى قد تركتُها ... مِهادًا ولم أَتْرُك عليها مُنازِعَا

---

(١) الأصل : « فأخبرتنى » .

(٢) العقد (٤ : ٤٩٢) والنفح (١ : ٢ : ٣) : « رأيت » .

(٣) الأصل : « مع » . وما أثبتنا من العقد، والبيان المغرب (٢ : ٧٣) والحلة السيراء (١ : ٤٧) والمغرب (١ : ٤٤) .

(٤) شريان الهبيد ، أى شجر الحنظل .

(٥) العقد ، والبيان : « عن قراعهم » .

(٦) العقد ، والبيان : « وأنى »

(٧) الأصل : « جزاعا » ، وهو غير مسموع .

(٨) الأصل : « سقيتم » ، وما أثبتنا من العقد ، والبيان .

كان عُثمان بن المُثنىَّ المؤدِّب يقول : قَدِم علينا عباسُ بن ناصح قُرطبة ، أيَّام الأَمير عبد الرحمن ، فاستنشدنى شِعْرَ الحَكم فى الهَيْج (١) ، فلما انتهيتُ به إلى آخر الأَبيات ، حيث يقول :

وهَلْ زِدْتُ أَن وَفَّيْتُهم صاعَ قَرْضِهِمْ فوافَوْا مَنايَا قُدِّرت ومَصارِعَا

قال : لو وَضع الحَكَمُ الخُصومةَ فى أَهل الربض (٢) لقام بعُذره هذا البيت .

ومن شِعره فى الغزل ، وكان له خمسٌ من جواريه قد غَلبن عليه ، وحُلن بينه وبين سائر نسائه ، فأَراد يومًا أَن يُدخل عليهم غيرهن ، فتأَبيَّن عليه وقُمن مُتغاضبات ، فلما ولَّيْن عنه صَرَفهن وعمل فى استرضائهن ، وأَنشأَ يقول :

قُضْبٌ من البان ماسَتْ فوق كُثْبَانِ ولَّيْن (٣) عنِّى وقد أَزْمَعْنَ هِجْرانِى
ناشدتهُنّ بحَقِّى فاعْتزَمْن على الْـ عِصْيان لمَّا خَلاَ (٤) منهن عِصْيانى
مَلَكْننى مَلِكًا ذلَّت عَزائِمُه للحُب ذُلَّ أَسِير مُوثَقٍ عانى
مَنْ لى بمُغْتصِبات الرُّوح مِنْ بَدَنى يَغْضِبْننى فى الهَوَى عِزِّى وسُلطانى

وله فيهن :

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّه مَمْلُوكَا ولقد كان قَبل ذاك مَلِيكَا
إِنْ بَكَى أَو شَكَا الهَوى زِيدَ ظُلْمًا ببِعَادٍ (٥) أَدْنى حِمامًا وَشِيكَا

(١) الهيج : الحرب .
(٢) العقد : « لوجوثى الحكم فى حكومة لأهل الربض » .
(٣) وكذا فى الحلة السيرة (١ : ٥٠) والنفح (١ : ٣٤) . وفى البيان المغرب (٢ : ٧٩) : « أعرضن عنى » .
(٤) الأصل : « خلا » بالخاء المعجمة ، تصحيف .
(٥) الأصل : « بعادا » .

تركتْه جآذرُ القَصْر صَبًّا مُسْتَهامًا على الصَّعيد تَريكَا
يَجعل الخَدَّ واضعًا فوق تُرْبٍ لِلَّذى يَجعل الحَرِيرَ أَرِيكَا
هَكذا يَحْسُن التَّذلُّل للحُـ ـرِّ إذا كان فى الهوى مَمْلُوكا

(ولاية عبد الرحمن بن الحكم)

وكان الأَمير عبد الرحمن بن الحكم ، رحمه الله ، حليمًا جوادا ، وكان له حظ من أَدب وفِقه ، وحفظ للقرآن ، ورواية للحديث .

حُكى عنه أنه تمادى مع بعض جلسائه فى حديث من بعض المشاهد ، فلما تلاحيا فيه ، قال : اسْمَعْ كتب المَشاهد حفظًا ، فقرأَها ظاهرًا .

وحَكى بعضُ نَقَلة الأَخبار أنه لم يَصِل أَحدٌ إلى روايته (١) ومُشافهته فَلَمَّا سأَله (٢) (سائل) (٣) شيئًا مما عزَّ أَو هان ، فانصرف دونه .

وأَلْفى المُلْك قد مُهِّد ووُطِّد ، فَخَلا بلذَّاته ، وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التى جُمع فيها ماتَشتهيه الأَنفس وتَلَذُّ الأَعين .

أُدخلت إليه يومًا أَموالٌ ورَدت عليه ، فعُبِّيت الخرائط بين يديه ، وبَثَّ فِتيانه بالرَّسائل إلى خدمته ، فخلا مجلسُه منهم حاشى فتى كان قائمًا بين يديه ، فتغشَّت عبدَ الرحمن سِنةٌ ، ظَنَّ بها الفتى أَن النوم قد أَثقله ، فبسط يده على خريطة من المال ، أَرْسل عليها كُمَّه وولَّى ، وعبدُ الرحمن يلاحظه ، فلما توافى فِتيانُه أَمرهم ، برفع المال وعدّ الخرائط ، فإذا خريطة ناقصة ، فتدافَعوا فيها ، كلٌّ يَتهم بها صاحبه ، فقال لهم

---

(١) الأصل : « رويته » . (٢) الأصل : « فسأله » .
(٣) تكملة يقتضيها السياق .

عبدُ الرحمن: أَمسكوا عن هذا ، فقد أَخذها مَنْ أَخذها ، وعايَنه من لايقولها ، وأَمر بضم المال ، ورأى أن كَشْف آخذها لَوْم ، حياءً وكرمًا .

وتغضّبت جاريةٌ من جواريه عليه ، وأَرسل إليها ، فامتنعت منه وغلّقت بابها دونه ، فأَمر ببُنيان الخرائط على بابها حتى سدّ الباب ، فلما فتحته تساقطت الخرائط عليها ، فإذا بنحو عشرين أَلفَ دينار .

وأَمر لجارية من جواريه بعِقْدٍ شراؤه عليه عشرة آلاف دينار ، فجعل بعضُ مَن حضر من وزرائه يُعظِم ذلك عليه ، فقال له : ويحك ! إنَّ لابسَه أَنفسُ منه خَطَرًا (١) وأَرفع قَدْرا ، وأَكرم جوهرًا ، ولئن رَاق من هذه الحَصباء منظرُها ، ولُطُف فى الأَعين جوهرها ، لقد بَرأَ اللهُ مِنْ خلقه جوهرًا يَروق ويَسبي الأَلباب ، وهل على الأَرض فى زينتها ، وشريف جوهرها ، وملاذ(٢) نعيمها ورَفاهيتها ، أَقرّ للعين ، وأَجمع لمحاسن الزَّين ، من وجهٍ أَكمل اللهُ حُسْنَه ، وأَلقى عليه الجمالُ بَهْجته ، ثم قال لابن الشَّمْر ، وكان حاضرًا : هل يحضُرك فى ذلك شيء ؟ فقال :

أَتَقْرنُ حَصْباءَ اليواقيت والشَّذْرْ ... إلى مَن تعالَى عن سَنَا الشَّمْسِ والبَدْرِ
إلى مَنْ بَرَتْ قِدْمًا يدُ الله خَلْقَه ... ولم يَكُ شيءٌ غيرُه أَبدًا يَـبْرى
فأَكْرِمْ به من صَنعة الله جوهرًا ... تَضاءَل عنه جَوهرُ البرِّ والبَحْـر
له خَلَق الرحمنُ مافى سَمائه ... ومافَوْق أَرْضيه ومَكّن فى الأَمْـر

فقال الأَمير عبدُ الرحمن بن الحكم :

قَريضك يابن الشَّمْر عفَّى على الشِّعْر ... وجَلّ عن الأَوهام والفَهْم والفكْرِ

---

(١) الأصل : « حظرا » ، تصحيف . (٢) كذا .
(٣) الشذر : قطع الذهب تلتقط من معدنه واللؤلؤ الصغار.

إذا شافَهَتهُ الأُذْنُ أَدَّى بسحره ... إلى القَلب إبداعًا فجَلَّ عن السِّحْرِ
وهَل بَرأَ الرَّحمنُ من كُل مابَـرَا ... أَقرَّ لعَيْنٍ من مُنَعَّمة بكْر
تَرى الوَرْدَ فَوْقَ الياسمين بخَدِّها ... كما فُوِّق الرَّوْضُ المُنَوِّر بالزَّهر(١)
فلو أَنَّى مُلِّكْتُ قَلبى وناظـرى ... نَظمتُهما منها على الجيد والنَّحْر

ثم أَمر له بخَريطة فيها خمسمائةُ دينار ، فخرج والوصيفُ يحملها له ، فلما توارى عن الأَمير قال له : يا بن الشَّمر : أَين بات القمرُ الليلة ؟ قال : تحت كُمِّك ياسيدى .

وغزا ماردةَ سبعة أَعوام وِلاءً ، فلمَّا كان العام السابع ، وأَشْفى بهم على العطب ، نظر إلى جُنده قد تعلَّقوا بشُرَّافات السُّور وتغلَّبوا عليه . وضَعُف أَهل ماردة عن دفاعهم ، فسَمع صُرَاخَ النِّساء وعَويل الصِّبيان ، وعَجيج البُكاءِ ، فأَمر بالإمساك عنهم ، وقَبْض أَهل العَسكر عن قتالهم ، ثم دعا بوُزرائه وقُواده ، وقال لهم : قد علمتم ماكان من تغلُّب حَشَمنا ورجالنا على هؤلاءِ الظَّلمة لأَنفسهم ، ولم يكن رَفْعُنا مارفعناه عنهم إلا رِقْبَة لله ، عز وجل ، فيهم ، وتخوفًا مِن قتل وِلدانهم وأَطفالهم ، ومن لاذنب لهم ممن استُكْرِه على نفسه منهم ، ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عَودنا الله وعَرفنا من العَفو والصَّفح ، وقد عَزمتُ على الانتقال عنهم ، فإن أَبصروا قَدْرَ يَدِنا فى الإبقاء عليهم ، ومراقبة الله فيهم ، وإلا كان الله من ورائهم مُحيطًا ، وعلى الانتقام منهم قديرًا ، فهو الذى أَيَّدنا وقهرهم ، ونصرنا وكَبَتهم .

---

(١) فوق ، أى جعل الزهر من الروض ، كالفوق من السهم ، وهو حيث يثبت الوتر ، وهما فوقان .

فلم يَنْتَقل إلا محلَّة حتى أَتته رسلُهم بطاعتهم ، والإلقاء إليه بأَيديهم .

وكتب إليه بعضُ مواليه يسأَله عملا رفيعًا لم يُشاكله (١) ، فوقَّع فى أَسفل كتابه : من لم يُصب وجه مَطلبه كان الحِرْمانُ أَولى به .

وكان عُبيد الله بن قرلمان (٢) بن بدرا، مولاه ، من بعض نُدمائه ، قد خرج مُطَّلِعًا لضيعته ، فحضرت الأَمير أَريحية صار بها إلى مجالسة أَصحابه ، وقد افْتصد ذلك اليوم ، فكانوا عنده فى أَحسن مجلس ، ثم انقلبوا ، وقد وصل كُلَّ رجل من الخمسمائة إلى المائتين ، على قَدْر مَعروف كل رجل منهم ، فوقع الخبرُ على عُبيد الله بن قرلمان ، فابتدر رجاءَ أَن يُدرك الصلة التى نالت أَصحابه ، فكتب إليه :

يامَلِكًا حَلَّ ذُرَى المَجْدِ	وعَمَّ بالإِنْعـام والرِّفْـدِ
طَوَى لمن أَسمعتَه دعوةً	فى يَوم إجماعك للفَصْدِ
فظلّ ذاك اليوم من قَصْفه	مُستوطنًا فى جَنة الخُلْدِ
وقد عَدانى أَن أُرَى حاضِرًا	جَدًّا(٣)متى تُحْظِ الوَرى يُكْدِ
فانْتَعِشْ العَثْرَةَ من عاثِـرٍ	عَدَتْ عليه أَنْحُسُ القِـرْدِ
وامنُنْ بإِصْفادِى عطًا لم يَزَلْ	يَشْمل أَهلَ القُرْب والبُعد (٤)

فوقع فى أَسفل أَبياته : من آثر التضجع فَلْيرض بحظه من النَّوم .

---

(١) العقد الفريد (٤ : ٤٩٣) : « لم يكن من شاكلته » .

(٢) فى الأصل : « قرطان » . وما أثبتنا من التكملة لابن الأبار (انظر الفهرست) .

(٣) الأصل : « جد » . والجد بالفتح : الحظ .

(٤) أصفده : أعطاه حتى قيده بالإعطاء .

ثم عاود فقال :

لانمْتُ إن كنتُ يامولاى مَحْرُوما ... ولاطَعِمْتُ على ما نالنى نَوْمَا
أَشْقَى لِحرْمان يوم ٍ لااعتياضَ به ... لو أَنَّ مِن جَنَّة الفردوس لى يَوْمَا
ورُؤيتى منك وجهًا مااكتحلتُ به ... إلا تعرَّفت صُنْعًا منه محتومَا(١)
فكيف أُمنع وِرْدًا منك آملُه ... صَدْيان حامَ رجائى فَوقه حَوْمَا

فأَمر له بالصِّلة ، وكتب فى أسفل كتابه :

لاغَرْوَ أنْ كُنت مَمْنُوعًا ومَحْرومًا ... إذكنت آثرتَ هَوْبًا يُورثُ النَّوْمَا(٢)
ولم ينل إمْرؤٌ من عَفْوه أَمَلاً ... حتى يَشُد على الإجهاد حَيْزُوما (٣)
فهك من سَبْينا ماكنتَ تأمله ... إذ حُمْتَ فوق رجاء الوِرْد تَحْوِيمَا

(ولاية محمد بن عبد الرحمن)

وكان الأَمير محمدُ بن عبد الرحمن حليمًا عفيفًا ، كاظمًا لغيظه ، مجتملاً (٤) حسَن الأَدب ، بصيرًا بالحساب ، .

ذُكر عنه أَنه كان يتولَّى محاسبة أَهل خِدمته ، ويتعقب أُمورهم بنفسه ، لِنُفوذه فى الحساب ، وصحّة قريحته ، وتمكنه فى فُنون العلم والآداب ، ثم يُوقفهم على موضع الخَلل والخطأ فى أَعمالهم .

ومما يُؤثر من أَناته وتثبُّته أَن هاشم بن عبد العزيز دَسَّ على رجل من خَدَمة الأَمير من بَغاه عنده ، وحَشد من كل جانب عليه ، وأَبقى

(١) كذا . وفى البيت عيب من عيوب القافية ، وهو سناد الحذو ، وهو اختلاف حركة ما قبل الردف .

(٢) الهوب : البعد . (٣) انظر الحاشية الأولى .

(٤) الأصل : « محتملا » بحاء مهملة ، تصحيف .

نفسه للمشورة فى أَمره ، فلما دَخل فى بعض الأَيام هاشم أَخطر ذكرَه ايعلم ماوَقر له فى قلبه ، فلم يستنكر من حالته شيئًا ، ثم أَعاد الناس إلى الطلب والوقوع فيه ، فتباطأَ عليه ماأَمّل من عزله ، إلى أَن كشف وجهه فيه ، وذُكر عنه أَكثر مما كان يطعن به عليه ، حتى أَشاط دمه ، فأَدخله الأَمير محمد – عفا الله عنه – فقال : ياهاشم ، هذا كتابك ؟ قال : نعم ، قال : فما ترى فى أَمره ، فقد كَثُر علينا فى جانبه ؟ قال : التنكيلُ له والتشريد به ، قال : ياهاشم ، على رِسْلك ، قُم إلى الكُوة التى فى المجلس ، فخُذ ضُبارة الكتب التى فيها ، فإذا بها تشتمل على نحو من مائة كتاب ، فقال له : اقرأْ ، فإذا كُلٌّ كتاب مُوجب لقتله ، مُشيطٌ دَمه ، فجعل يقرأ ، ويده تُرْعَد ، وجَبينه يرشح ، ووجهه يُزْبد ، فإذا فرغ من كتاب أَمره بأَخذ غيره ، حتى أَتى عليها . قال : ياهاشم ، مامَعذرتك فى هذا ؟ فجعل يتنصّل ويحلف ويقول : حُسّادى ، وأَهل الطعن علىّ ، والتنافس بنعمة الأَمير ، أَبقاه الله عندى ، وحُسن رأْيه فى كَثير ، والأَمير سيِّدى ، أَعزه الله ، أَولى بالتثبت فى أَمرى ، والإِبقاء علىّ ، حتى تنكشف بَراءَتى ، ويتَّضح له وجهُ عذرى ، وهو على فعل مالم يَفعل أَقدر منه على رد ماقد فعل ، قال : ياهاشم ، رُبَّ عجلةٍ أَعقبت نَدَمًا ، وليس من شيمتى الإِسراع ، ولو كانت تِلك لكنتَ أَول هالك ، وقد خبرنا هذه المُطالبات فرأَينا أَكثرها إِفْكًا وزُورا ، ومع هذا فلو رَدَدْنا إفك الآفك منهم ، وأَظهرنا له الإِعراض عن تَقَبُّل منهم ، انكسروا عن مُناصحتنا ، ونكَلوا عن مكاتبتنا ، ولكنَّا نَعِى ذلك فهمًا ، ونحيط به علِمًا ، حتى نـأتى عليه بعين جليَّة ، وصِدْق رويَّة ، فإياك أَن يَعرف أَحدٌ من أَصحاب هذه البَطائق التى أَطلعناك عليها أَنَّك فهمتَ

شيئًا منها ، فإنه إنْ عَلِم أَحدٌ منهم أَنه ذاعت (١) من كتابه لَفظةٌ عاقبتك بها أَشدَّ العُقوبة ، ولم تَقُم عندى لك بعد ذلك قائمة ، فانظر لنفسك أَو دَع .

ولمَّا أُصيب هاشم بكَرْكَر ، وصار إلى الأَمير خبرُه ، وقف (٢) الأَمير محمد فى جانبه ، فذُكر أَن ذلك إنما كان لِطَيْشه وعجلته ، وقلَّة إحكامه لنظره ، وأَنه لم يزل محدودًا فى أَمره ، والوليدُ بنُ عبد الرحمن بن غانم حاضر مع الوزراء ، فلم يكن منهم أَحدٌ يتكلم غيره(٣) ، على مُباعدة كانت بينهما ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، لم يَكن على هاشم التخيرُ فى الأَمر ، ولاالخروج عن القدر ، بل استفرغ نُصحه ، وأَعمل جهده ، وحامَى استطاعته(٤) ، فأَسلمه الله بخذلان مَن كان معه ، ونكول من أَطاف به ، فجُوزى عن نفسه وسُلطانه خيرًا .

فأُعجب بذلك من مقالته ، وسُرِّى عنه فيه .

ثم رأَى الأَميرُ محمدٌ صَرْفَ ماكان بيد هاشم من دار الخيل والقيادة إلى الوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، فقال : أَصلح الله الأَمير ، إنما كان هاشم عبدَك ، وسهمًا من مراميك ، وسيفًا من سيوفك نَفذ لأَمرك ، وتقدم فى المحاماة عن سلطانك ، حتى تقطَّع فى مرضاتك ، فَلْيُحسن الأَميرُ ، أَبقاه الله ، خِلافته فى أَولاده ، وليحقِّق مِن بَعض بلائه بإمضاء

---

(١) الأَصل : « استذاع » .

(٢) الأَصل : « وقع » .

(٣) الأَصل : « غير » .

(٤) الأَصل : « استطاعتك » .

ولده على خِدمته ، فقال : ياولِيد ، مثلك ذكَّر بشريف المَنقبة ، وحَضَّ على سَنى المَكْرُمة ، وقديماً ماوُفِّقت فوَفَّقْت ، وسُدِّدت فسَدَّدت ، وأَفضل الأَصحاب عندنا الناصحُ فى المشورة ، المذَكِّر عند الغفلة ، الباعث على المصلحة ، وقد استحسنَّا مارأَيت فمُرْ ولده بالتَّمادِى على خدمته ، ولاتُخْلِهم من تفقدك ، والإشراف عليهم ، بحُسن نظرك .

وكان الأَميرُ محمد مشغوفًا بالبَيان ، مُؤْثِرًا لأَهل الآداب ، تردد عليه بعضُ مواليه يسأَل استخدامه ، بلطائف فى الرَّغبة ، وترفُّق فى المسأَلة ، فأَوصى إليه : لم يتقدم لك عندنا خِبْرةٌ نُقدِّمك بها غير مارأَيناه من حُسن مخاطبتك فيما تَرِد علينا من كُتبك ، فإن كنت كاتبَها فقد أَحسنت ، وإن كنت اخترت بفَضل همتك ، وجَودة اختيارك ، مَن يُحسن ذلك عنك ، فقد أَبلغت فى العناية ، وفَضُلْت فى الهمة ، وأَنت بكلتا الحالتين عندنا متقدِّم ، وقد رجونا بنَفاذك فى تهذيب كتبك تَهذيبك لخدمتك ، فولَّيناك على الرجاء فيك فصدِّق الظن بك ، وحافظ على أَدنى حظك ، تَنَلْ أَقصاه ، فقلما أَحسن امرؤ فى بَدءِ أَمره إلا حَسُنت عاقبته ، وحُمِدت مَغبتَّه .

وكان أَبو اليُسر الشاعر ، المعروف بالرِّياضىّ (١) ، قد اضطرب بالمشرق فأَعيته وجوهُ مطالب الرِّزق ، فقصد الأَندلس ، وافتعل كتابًا على لسان ابن الشيخ بالشام ، وأَلسنة عامة أَهل بلده ، بكُل ماأَمكنه من الاستدعاء إلى الخلافة ، وذِكْر تقارب الدولة ، فلمَّا ورد على الأَمير محمد ، رحمه الله ، فَهِم أَنَّه محتال مُتعيِّش شحَّاذ ، فأَمر بتوسيع نُزله ، وأَمضى ذلك له بطول مُكثه ، ثم وصلت له إليه كتب يسأَل الإذن له ، بعد طُول

---

(١) التكملة (انظر الفهرست) .

مقامه ، استحسنها الأَميرُ واستلطفها ، فأَدخل هاشمًا إلى نفسه ، وقال : ويحك ! هذا إنسان طالب معيشة ، تولدت له بها هذه الحيلة ، فإنْ صِرْنا إلى تصديقه ومُجاوبته ، على حسب كتبه ، اتخذنا عند بنى هاشم مَضْحكةً ومَزْراةً ، وإن كذبناه وحرمناه ، وقد احتل جنابنا ، فلَوْمٌ مشهور ، وفعْل غير مشكور ، وقد رأَينا فيما خاطبنا (١) به عن نفسه تأْليفًا حسنًا ، وتَجويدًا بالغًا ، لو كان قَصدنا به عن نفسه ، على نأْى داره ، وبُعد مزاره ، لاستحق معروفنا ، واستوجب إحساننا ، ثم أَمر له بخمسمائة دينار وازنةً (٢) ، وبكتاب ليس فيه غير : بسم الله الرحمن الرحيم .

فأَخبرنا محمدُ بن وليد الفقيه ، قال : خَرج من قُرطبة ، وخرجنا معه نريد المشرق ، فجمعنا الطريقُ ، فإذا أَحسنُ الناس أَدبًا ، وأَكثرهم تصرفًا ، فلما صِرْنا بالعُدوة أَخبرنا خَبره وأَمْره ، ثم فض الكتاب بين أَيدينا ، فإذا ليس فيه غير : بسم الله الرحمن الرحيم ، فجَعل يُكثر التعجب من ذكاء الأَمير محمد ، ويقول : هكذا أَعرف بنى أُمية ، لم يكن ليُلاَم ولم يكن ليُخدع .

فلما صار الرياضى ، إلى مصر وَقَع صاحبُها على خبره ، فأَمر بِحَبسه .

قال محمد بن وليد : فاتَّصل بنا خبرُه ، ووجب علينا فى رعاية الصُّحبة زيارته وتأْنيسُه ، فلما انصرفت ، وثلاثة معى من أَهل الأَندلس ، من صلاة الظهر يوم الجمعة ذهبنا إلى صلته وقَصْده بمكانه ، فسأَلنا عن الحبس فهُدينا إليه ، فلمَّا وقفنا بالباب كَشفنا عنه ، فوُصف لنا

---

(١) الأصل : « خاطبناه » .

(٢) وازنة : وافية .

موضعُه ، فدخلنا إليه ندعو له ، فقال لنا : هل حُبستم معى ؟ قلنا له : ولم ذلك ؟ قال : مَن دخل الحَبس لم يَخْرُج عنه إلا برأى السلطان ، فَظَنَناه مازحًا ، ثم أَقلقنا ذلك ، وذَهبنا لنخرج ، فدَفع البوابون فى صُدورنا ، فإذا نحن أَعظمُ الناس داهيةً وأَجلّهم بليَّة ، لايعرفنا أَحد ولا نعرف أَحدًا ، فلبثنا بذلك من حالنا ، حتى رفعنا أَمرنا إلى المُزنى الفقيه، وذكرنا له مذهبنا فى الخَير ، وقَصدنا إليه فى طلب العلم ، فتردَّد على صاحب مصر فى أَمرنا ، حتى يَسَّر الله إطلاقنا .

وكَتب إلى الأَمير محمد الوليدُ بن عبد الرحمن بن غانم : عَظُمت نِعْمة الأَمير ، أَبقاه الله ، عن الشُّكر ، وجلَّت أَياديه عن النشر ، فمتى رمت شَكر أَدنى ماغَمرنى ، وحَمْدَ أَيسر مااشتمل على تكاءَ دنى (١) الشكر ، وعَجز بى الجهد ، ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ فى القول ، والاجتهاد فى العمل ، إذ لم أَرهما يَدوران إلا على نعمة أُزلفت ، ويقتصران إلاَّ على زيادة انتُظرت ، وأَنا بينهما مُخيم ، وعليهما معوِّل ، والله الناقل لعباده بطاعتهم له ، وشكرهم إياه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نَصب العاجلة إلى راحة الآجلة .

فكتب إليه : إن الله شاكر يُحب الشاكرين ، وقد ناديت فأَسمعت ، ولكل أَجل كتاب .

ثم استوزره إلى أَيام .

ووَلِى المُلْك يوم الخميس لثلاث خَلَوْن من شهر ربيع الآخر ، سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، فملك أَربعًا وثلاثين سنة ، وتوفى فى يوم الجُمعة

---

(١) تكاءده الأمر : شق عليه . وفى الأصل : « تكاأد » .

لمستهل ربيع الأَول من سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وهو ابن سبع وستين سنةً (١) .

(ولاية المنذر بن محمد)

وكان الأَمير المُنذر بن محمد غائبًا يومًا بكُورة ريّة ، فى الغزاة التى كان أغزاه إياها الأَمير محمد ، فوقع عليه الخبر بوفاة أَبيه ، فأَغذَّ السَّيْرَ ، وطَوى المَراحل ، حتى دخل قُرطبة يوم الأَحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأَول ، فأَدرك جِنازة أَبيه ، وصلى مع الوزراء يومئذ عليه ، وهاشم يُعْوِل إعوال مَن غلبه الجزع ، واشتد عليه التفجع . فقال متمثلا بقول أَبى نواس(٢) :

أُعَزِّى يامحمدُ عنك نفسى ... مَعاذَ الله والأَيدى (٣) الجِسَام

فهلا مات قوم لم يموتُوا ... ودُوفع عنك لى كأْس(٤) الحِمام

فاضْطغن ذلك منذرٌ عليه ، وظن أنه يعنيه ، فصار مِن حَبسه وقَتَله ، إلى مايطول ذكره . مما وقع فى غير هذا الموضع .

ثم لم يلبث المُنذر بن محمد إلا سنتين ، لم يُدرك فيهما ، لِقِصر مدته ، وتقلص أَيامه ، رَتْقَ ماكان انفتق من المُلك ، مع عَزم كان منه فى ذلك وجِدّ ، حتى نزل به الموت ، وهو على بُبَشْتر محاصِرًا لها ، يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين ، وهو ابن ست وأَربعين سنة .

---

(١) البيان المغرب (٢ : ٩٦).

(٢) هذا الشعر قاله أبو نواس فى وفاة الخليفة العباسى محمد الأمين.

(٣) ديوان أبى نواس (ص : ٥٧٨) : « والمنن ».

(٤) الديوان : « أجل ».

(ولاية عبد الله بن محمد)

ثم ولى الأَميرُ عبد الله يوم السبت ، يوم مَهلك أَخيه ، وكان قد سئِم الناس من طُول المُقام، فما هو إلا أَن عَلموا بوفاة المُنذر،فخرجت(١) حُشود الكُور ، ووُفود القبائل ، وانصدعوا فى كل وجهة كانوا بها ،فأَمر بضَبطهم، فلم يُلْفِ أَحدًا (٢) يَضْبِط ، فانتقل خائفًا على نفسه من عدّوه ، وقدم أَخاه المُنذر بين يديه ، وكان أُشير عليه بدفنه فأَنف من ذلك ، حتى قَدِم به قُرطبة فدفنه مع آبائه فى القصر .

ثم إن الأُمور تفاقمت فى ولايته . وتفاوتت بعد قُرب تداركها ، فتفرقت أَجنادُه ، وعجز عن نصره قُوادُه والتزم التقوى ، وإظهار النسك وتوفير مافى يده من أَموال المسلمين ، حياطةً عليها ، ونظرًا لهم فيها ، وهُلك الجبايات ، باشتداد شوكة الثوار عليه بكُل ناحية ، فوفَّر (٣) أَعطيات الأَجناد ، وضيق على من بقى معه منهم ، واستولى الفساد فى كل وجه ، وآل أَمر ابن حَفصون إلى ما آل إليه ، مما قد شُهر ودُوِّن ، حتى ضُبط عليه حصن بُلَاى ، وهو على مرحلة من قُرطبة ، وانبسطت خيلُ ابن حفصون فيما حواليه ، فكانت تُصابحه كل يوم غادية ورائحة . على أَعلام شَقُنْدة ، وفجّ المائدة ، ولايَدفعها دافع .

وبلغ الأَمرُ أَن تقدَّم فارس من شُجعان أَصحابه ، وقد ضَرب ابن حَفصون وخيله ، على الفج المُطِل على قُرطبة ، فاقتحم القنطرة ، ودفع رمحه فأَصاب الصورة التى على باب القنطرة ، ثم كَر راجعًا إلى أَصحابه.

---

(١) الأصل : وخرقت » . ولعلها محرفة عما أثبتنا .

(٢) الأصل : « أحد » .

(٣) كذا . والمسموح « أوفر » ، أى زاد وأضعف.

وتمادى هذا البلاء خمسة وعشرين سنة ، وكانت الأُمور قد التأمت بعض الالتئام فى آخر أيامه ، بقائده أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى عَبدة ، فله على ابن حفصون وغيره من الثُّوّار ، وقائع مشهورة ، انتصف فيها وأربى عليهم ، وأخرج ابن حفصون من حِصن بُلاى ، وجبى بعض نواحى الشرق ، وصالح قومًا آخرين على بعثة أَموال ضُربت عليهم ، مع إقرارهم فى مواضعهم .

ولعبد الله الأَمير توقيعات بليغة ، وأَشعار بديعة فى الغَزل والزُّهد ، لايكاد أَن يقع مثلها ، أَوَ ينتسب إلى مَن تقدمه ، نظيرُها .

كتب إلى أَحمد بن محمد القائد فى يوم عيد : أَمَّا بعد ، فالتزم التوكل على الله ، تبارك وتعالى ، والثقة به فى جميع أُمورك ، وما أَنت بسبيله من ثغرك ، فإنهما حِرْز من كل ضُر يُتَّقى ، وبلاغ لكل خير يُرتجى ، وكن من التحفظ فى أَيام عيدك على أَحسن الذى يجب عليك الأَخذ به والتحفظ فيه ، والله خير حافظًا ، وهو أَرحم الراحمين .

وأَملى كتابًا إلى بعض عُماله : أَما بعد ، فلو كان نَظرك فيما عَصبناه بك ، واهتبالك (١) على حسب مؤاثرتك بكُتبك ، واشتغالك بذلك على مهم أَمرك ، لكنت من أَحسن رجالنا غناءً ، وأَبلغهم نظرًا ، وأَفضلهم حزمًا ، فأَقلل من الكتاب فيما لاوَجه له ولانفع فيه ، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى مايبدو به اكتفاؤك ، ويظهر فيه عناؤك ، إن شاء الله ، والسلام .

---

(١) اهتبالك : اغتنامك .

وله فى الغَزَل :

وَيْلى على شادنٍ كَحيل فى مثله يُخْلَع العِذارُ
كأنما وَجْنتاه وَرْدٌ خالَطه النَّوْر والبَهارُ
قَضيب بانٍ إذا تَثَنى يُدير طَرْفًا به احْوِرَارُ
فصَفْوُ وُدِّى عليه وَقْفٌ ما اطَّرد الليلُ والنَّهارُ

وله فى الزُّهد :

يامن يُراوضه الأَجَلْ حتَّام يُلهيك الأَمَلْ
حتَّام لاتَخْشى الرَّدَى وكأَنه بِك قد نَزَلْ
أَغَفَلْتَ عن طَلب النَّجا ةِ ولا نَجَاةَ لمن غَفَلْ
هَيهات تَشْغلك المُنىَ ولَمَا يَدُوم بك الشُّغُلْ
فكأَنَّ يَومك لم يَكُنْ وكأَنَّ نَعْيك لم يَزَلْ

(ولاية عبد الرحمن بن محمد)

وأَما عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأَمير ، فإنه ولى الخلافة والفتنةُ قد طبَّقت آفاق الأَندلس ، والخلاف فاشٍ فى كل ناحية منها ، فاستقبل المُلك بسَعْد ، لم يُقابِل به أَحداً مِمَّن خالفه أَو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما فى يديه .

فافتتح الأَندلس مدينةً ، وقتل حُماتها ، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استَبَقى من أَهلها ، وأَذلهم بعَسْف العمَّال غاية الإذلال ، حتى دانت له البلاد ، وانقاد له أَهل العِناد ، فمات ابن حَفصون فى حِصاره ، وقُتل سليمان ابنَهُ محاربًا ، واستنزل سائر بنيه وأَهله وأَمَّنهم ، وصاروا فى جنده ، وملك بُبَشْتَر وبناها وحصَّنها وهدم كل حصن غيرها .

وذكر أنه إنما استبقاها عُدَّة لنفسه ولولده ليلجُوا إليها ، لما كانوا يحدِّثون فى الآثار من أن فِتَنًا تهيج فى الأَندلس بخوارج يَخرجون على أهلها ، يُخرِّبون البلاد ، ويَقتلون الرِّجال ، ويَسْبُون النِّساءَ والوِلدان ، حتى يَعُم الفساد جميع أقطارها ، فلا يبقى فيها إلا من اعتصم بالمَعاقل ، أَو لجأَ إلى البُحور ، وهو عندهم الفسادُ المُتَّصل بالبلاءِ الأَعظم الذى لاصَلاح بعده ، ولابقاءَ معه .

والله أَعلم وهو المستعان .

واتَّصل مُلك عبد الرحمن خمسين سنة ، فى عزٍّ مَنيع ، وسلطان قاهر ، وافتتاح للبلدان شرقًا وغربًا ،مع غزو العدو والغلبة عليه (١) ، وانتساف بلده وهَدم حُصونه ، والاستبلاغ (٢) فيه ، لايَلقى ذُلاًّ ، ولايَرى فى شئ من أُموره نَقْصًا .

وتناهى ذلك السعدُ حتى فتح الله له ماوراءَ البحر من المُدن الجليلة ، والمعاقل المنيعة ، كسَبْتة ، وطَنجة ، وغيرهما (٣) ، ودان له أَهلُها ، فاستعمل عليها القُواد ، وحصَّنها بالرِّجال ، وأَمدَّهم بالجيوش الكثيفة فى الأَساطيل حتى وَطِئت بلادَ البربر ، واستذلَت ملوكَها ، فصاروا بين مُنْقبع (٤) محصور ، ومُذعن مُنيب ، وشارد هارب ، ومالت إليه الأَهواء ، وسمت نحوه الهِمَمُ ، فضَافَره على حربه ، وتَجرَّد فى نصره ، من كان مُسْتَنْفَرًا (٥) فى قتاله من شيعة أعدائه ، فَنَكص عن (٦) موالاته ، واستهلك فى مَرضاته .

---

(١) الأصل : « له » . (٢) كذا . ولعلها : الاستيلاغ ، بمثناة تحتية . والاستيلاغ : عدم المبالاة . (٣) الأصل : « وغيرها » .

(٤) الأصل : « منتقبع » بمثناة فوقية ، وهى غير واردة .

(٥) الأصل : « مستبصراً » . ويبدو أنها محرفة عما أثبتنا .

(٦) الأصل : « على » .

واستحكم من أمره ما لو اتصل عَزْمُه فيه ، وتأييد الله عليه ، لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب ، ولكنه — عفا الله عنه — مال إلى اللَّهو ، واستولى عليه العُجْبُ ، فولَّى للهوى لا للعناء (١) ، واستمد بغير الكُفاة ، وأغاظ الأَحرار فى إقامة الأَنذال ، كنَجدة الحيرى ، وأَصحابه الأَوغاد ، فقلَّده عسكره ، وفَوّض إليه جليلَ أُموره ، وأَلجأَ أَكابر الأَجناد ، ووُجوهَ القواد والوزراء ، من العرب وغيرهم ، إلى الخُضوع له ، والوقوف عند أَمره ونَهيه .

وحالُ نَجدة حالُ مثله فى غيه واستخفافه ، وركاكة عقله ، فتواطأَ أَهلُ الحفاظ من رجاله ، ووجوه أَجناده ، على ما كان من انهزامهم فى الغَزوة التى غزاها عام ستة وعشرين وثلثمائة ، وسمَّاها غزاة القُدرة ، لاحتفاله فيها ، وعظم مشهدها ، فهُزم فيها أَقبح هزيمة ، وأَتبعهم العدوُّ أَيامًا ، يأسرونهم ويقتلونهم فى كل محلَّة ، فلم يَكَد ينجو منهم إلا قوم جَمعوا أَصحابهم على أَلْوِيتهم ، وتخلَّصوا إلى بُلدانهم .

فلم تكن له بعدها غزوةٌ بنفسه ، وخلا بلذَّاته ومَبانيه ، فبلغ فى ذلك مبلغًا لم يبلغه أَحد ممن تقدَّمه أَو تأَخر بعده ، وأَخباره فى ذلك أَشهرُ من أَن تُوصف .

واجتمع فى دولته عِلْيَة الرِّجال ، وسَرَوات الكتّاب ، خَدَمةً لم يَخدم الملوكَ مثلهم ، فى فضل آدابهم ، واتساع أَفهامهم ، مع المرؤة الطاهرة ، والسِّيرة الجميلة ، كمُوسى بن حُدَير الحاجب ، وعبد الحميد بن بَسيل ،

---

(١) الأصل : « لا للغناء » ، بالغين المعجمة .

وعبد الملك بن جَهْور ، وإسماعيل بن بدر ، وابن أَبي عيسى القاضى ، ومُنذر بن سعيد ، كان واحد عصره فى العلم والأَدب وحُسن الخطاب .

وكان عيسى بن فُطيس ، كاتبه ، أَبلغَ الناس إذا كَتب .

إلى كثير منهم لايَتَّسع التأْليف لذكرهم ، ووصف محاسنهم ، عفا الله عنَّا وعنهم ، ورحمنا وإياهم .

فمن كُتب عبد الرحمن أَمير المؤمنين الناصر كتابُه إلى أَحمد بن إسحاق القُرشى ، إذ سخط عليه ، وهو يحارب محمد بن هاشم التُّجيبىّ بسَرَقُسْطة ، وهو من كُتبه التى انفرد بها :

أَما بعد فإنا كنا نرى الاستحماد (١) إليك استصلاحًا لك ، فأَبى الطَّبع الغريزى إلا مااستحكم منه فيك ..... (٢) إلا أَن استحوذ عليك فالفَقر يُصلحك ، والغنى(٣) يُطغيك ، إذ لم تكن عرفته ولاتعوَّدته ، أَو ليس كان أَبوك فارسًا من فرسان ابن حجَّاج ، أَخسَّهم حالاً عنده ، وأَنت يومئذ نخَّاس الحمير بإشبيلية ، فأَقبلتم إلينا ، فآويناكم ونصرناكم ، وشرَّفناك وموَّلناك ، واستوزرنا أَباك ، وقلدناك أَعنَّة الخيل أَجمع ، وفوضنا إليك أَمر ثَغرنا الأَعظم ، فتهاونت بالتَّنفيذ لنا وقلَّة المُبالاة بنا ، ثم مع هذا : الترشُّحُ للخلافة ، فبأَى حَسب أَو أَى نَسب ! وفيكم قال القائل :

---

(١) استحمد إلى الناس بإحسانه إليهم : استوجب عليهم حمدهم له .
(٢) بياض بالأصل . (٣) الأصل : « والغناء » .

أنتم خشار الخُشَارِ وليس خَزٌّ كخَيْش (١)
إنْ كنتم من قُرَيْشٍ تَزَوَّجوا في قُرَيْشِ
أَو كنتمُ قِبْطَ مِصْرٍ فذا التَّعاطِي لأَيْشٍ(٢)

أَليست كانت أُمك حَمدونة الساحرة ، وأَبوك المَجذوم ، وجدُّك بوّاب حوثرة بن عبَّاس ، يَفْتُل الحبال فى أُسطوانة ، ويَخيط الحَلْفاءَ على باب داره ، فَلعنك اللهولَعن من أَنشبنا فى الاستخدام بك ، فيامَأبون ويامَجذوم ، ويابن الكلب والكلبة ، أَقْبِلْ صاغرا .

ومما خاطب به عبدُ الملك بنُ جهور عبدَ الرحمن الناصر لدين الله من اسْتِجَة ، وهو حينئذ وَلَد ، وجعل عنوان كتابه : لأَبى المطرِّف سيدى ، من عَبده المتعبد .

وتحت العنوان :

دامت لك النُّعْمَى وإن رَغِمَت أُنوفُ الحُسَّدِ
وَوَقَتْك نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورٍ يَروح ويَغْتَدِى
وعَلَوْتَ حتى لايُقالُ لِقَدْرك العالى ازْدَدِ
إنى كتبتُ وحَرُّ شَوْقِى يَسْتَمِيح تَجَلُّدِى
ودُموعُ عينى تَنْهَمِي(٣) فتُحِيل ماكَتبتْ يَدِى
لِتغرُّبى وتَوَحُّشِى وتفَرُّدى وتوحُّدى
مَن ذاق طَعم البَيْنِ ذاقَ الموتَ غير مُصَرَّدِ
ورأَى المنيَّة جَهرةً فى مَصْدَرٍ أَو مَوْرِدِ
إن أَذْكر (٤) الأُنْس الذى ولَّى وطِيبَ المَشْهَد

---

(١) الخشار : الفضلة والبقية . (٢) التعاطى : التطاول .

(٣) المسموع : هما يهمى . (٤) الأصل : « انذكر » .

وكَريم بِشْرِك لى ووَجْـ هك حين يُشْرق فى النَّدِى
فأَعِى من الحَسَرات أَلْـ وانًا تُطيل تبلُّدِى
فاسْلَم وعِش وابْلُغ مـدَا ك ودَعْ حَسُودك يَكْمُدِ
وارْحَمْه أن نِلْتَ العُـلاَ وجَرَى بجَدٍّ أَنْكَـدِ
ثُم السَّلام عليك مِـ نى دائمـًا يا سيِّدى

ومن جَيد قول عبد الملك بن جَهور فى النَّرجس :

قد بَعثنا إليك بالنَّرجس الغـ ـضِّ حكَى لونَ عاشقٍ مَعْمُودِ
فيه ريحُ الحَبيب عند التَّلاقى واصفرار المُحب عند الصُّدود

وله فى زوجته ، وكان كارهًا لأَخلاقها ، وله معها أخبار عجيبة ، ثم صار إلى مُفارقتها :

مَن ذا يفكُّ إسارِيَهْ ويَحُلُّ عَقْدَ عِقالِيَـهْ
مَن ذا يُخلِّص مِن هَـوًى مَن حَيْنُه فى الهـاوِيَهْ
إنِّى بُليت بشرِّ مَن تَحت السماء العاليـهْ
إنِّى دُهيت بحَيَّـة قَطعت حَرَاكَ لِسانيـهْ
لو كنتَ تُبصرها سأَلْـ ت اللهَ منها العافيـهْ
ما أَبصرتْهـا مُقْلتى مُذْ أَبصرتْهـا راضيـهْ
تَمضى السِّنونَ وتَنْقضى وحياتُهـا مُتمـاديـهْ
ولهـا أُهَيلٌ مُنْـتِنٌ عُور الوُجـوه سواسيهْ
لولا الحَيـاء بَصقتُ فى تلك الوجُـوه الباليـهْ
يا يومَ مَعْـرفتى بهـم يا زانى ابن الزانيـهْ

أَنْشَبْتِنى وغَرَرْتَنى وقَعَدت عنِّى ناحيهْ
ماكان هذا منك فى الـ ـوُدّ القديم جَزائيهْ

ومما خاطب به إسماعيلُ بنُ بدر الكاتب عبدَ الرحمن بن محمد الناصر :

عَدِمْتُ البَيْن أَرَّق طَرْف عَينى وفَرَّق بين مَن أهوى وبَيْنى
لقد نام القَعِيدُ قريرَ عَيْنٍ بمَن يَهوى وبتُّ سَخِينَ عَيْنِ
إذا وَجْه الصَّباح بدا تهادتْ ركائبُنا لأَيْنٍ بَعد أَيْنِ
فَقَلبى نازحٌ عنِّى غريبٌ وجِسْمِى دُونه فى غُرْبَتَيْنِ
أَجُوب القَفْرَ بعد القفرِ أَبْغِى لِذاك رِضَا إمام المَغْرِبَيْنِ
ومَن لايَبتغى دَعَةً إلى أَن يكونَ خليفةً بالمَشْرِقَيْنِ
لقد حَلَّت حُمَيًا الرَّاحِ عِنْدِى وطابَتْ بعد فَتْحِكَ مَعْقِلَيْنِ
وآذنَ كُلُّ هَمٍّ بانْفِرَاجٍ وأَنْ يَقْضِى غريمُك كُلَّ دَيْنِ
وهذا البَحْرُ يَذْكُر منك عَهْدًا سَقَى مَغْناه نَوْءَ المِرْزَمَيْنِ (١)
تَحِنّ إليك منه طامِيَاتٌ مِن الأَمواجِ مِلْء الخافِقَيْنِ
لئن جاشَتْ غواربُها بماءٍ أُجَاجٍ لايَسُوغ لوارِدَيْنِ
فأَنت البَحْرُ عَذْبًا مُستهلاً عَلينا بالنُّضار وباللُّجَيْنِ
فعِشْ فى غِبْطَة وسُرورِ مُلْك تَدُوم له دوامَ الفَرْقَدَيْنِ

أما قوله :

لقد حَلَّت حُمَيًا الرَاح عندى وآذن كُلُ هَمٍّ بانفراج

فإن أمير المؤمنين عبد الرحمن لمَّا غزا غزاته الثانية آلى ألا يأنس

(١) المرزمان : نجمان ، وهما الشعريان : العبور والغميصاء .

بمنادمة حتى يَفْتتح مَعْقِلاً ، فافتتح مَعقلين من معاقل ابن حَفصون ، فكَتب إليه بهذا الشعر .

وكان عبد الرحمن أَمير المؤمنين قد كَتب سِحَاءة (١) مُقرَّطة ، من قطعة زجاج من الزجاج الذى يفزوا به (٢) ارأس إسماعيل ، فكتب إليه :

قد كُنْتَ أَوجبت فى الزُّجَاجِ ... للرَّأْس منِّى بلا اخْتِلاَجِ
كَبيرة أُتْرِعَتْ رَحِيقًا ... صِرْفًا أَبَت ذِلَّة المِزَاجِ
فلم أَزل بعدُ ذا رَجاءٍ ... لها فَهل تأذننّ (٣) لراجِى
يا مالكًا رَأْيُه ضياءٌ ... فى كُل خَطْبٍ أَلَمَّ دَاجِى
كأَنَّما الفَجْرُ مِن سَنَاه ... فى غَسَق اللَّيْل ذو ابْتِلاجِ
بَحْر من الجُود فاض عَذْبًا ... طَمّ على الأَبْحُر الأُجَاجِ
مَنْ لى بيَوْمٍ به قِرَاعٌ ... ليس أَخُو كَرْبِه بناجِى
بكُل بَيضاءَ مَن رآها ... يَحسبها شُعْلَةَ السِّراجِ
لا تَنْسَ مولاه فى وَغَاهُ ... واذْكُره فى حَوْمة الهِيَاجِ

فكتب إليه أَمير المؤمنين :

كيف وإنى لمن يُناجِى ... مِن لَوْعة الشَّوق ما أُناجِى
يَطمع أَن يَستريحَ وَقْتًا ... أَو يَقْتل الراحَ بالمِزَاجِ
كنتُ كما قد عَلِمْتَ أَلْهو ... إذ أَنا مِمَّا شَكَوْتُ ناجِى

---

(١) السحاءة : القشرة من كل شيء .
(٢) كذا .   (٣) الأصل : « تأوين » .

فصِرْت للبَيْنِ فى عِـلاَجٍ   طَمّ وأَرْبى على العِـلاَجِ
الوَرْدُ مِمَّا يَزيد حُزْنى   ويَبعث السَّوْسَنُ اهْتِياجِى
أَرى ليالىَّ بعد حُسْنٍ   أَقْبَحَ من أَوْجُهٍ سِمَـاجِ
لاتَرُج مِمَّا أَردتَ شيئًا   أَو يُؤْذِن الهَمّ بانْفِـراجِ

وله فى عبد الرحمن أَمير المؤمنين ، رحمه الله تعالى :

لَطُفت أَناملُه بعَقْرَب صُدْغه   عَمَدًا ليَلْدَغَ فى فُؤاد العاشقِ
وكأَنَّ شاربه هلالٌ طالعٌ   قد خَطَّه بالمِسْك أَحذَقُ حاذِقِ
وكأَنَّما بِجَبينه شمسُ الضُّحَى   قد قُنِّعت بِظَلامٍ ليلٍ غاسِقِ
وكأَنَّ وَجنته أَزاهرُ رَوْضَةٍ   يَبْأَى(١) بها السُّوسان فوق شَقائِقِ
فإِذا تلفَّت قلتَ صورةُ دُمْيَةٍ   وإِذا تَبسَّم قُلت خَطْفة بارقِ
ياغايةَ الحُسن الذى هو غايتى   كيف احْتِمالى فى فُؤادٍ خافِقِ
حَكم الإِلهُ بما تَراه فما أَرى   مِن حِيلَةٍ فى دَفْع حُكْم الخَالِقِ
قُلْ لِلخَليفة مِن أُميَّة والذى   مادُون فَيْض نَواله مِن عائِقِ
أَنْسَيْتَ من مَنصورها ورَشيدها   وفَضَحْتَ من مَهديّها والواثِقِ
وحَكَيْتَ عن عبدالمليك وهَدْيه   سيما الخَليفة والإِمام الباسِقِ
أَأَصوغ(٢) بعدَ مواثقٍ لك جَمَّة   فيما مَضى أَكَّدتها بمَواثِقِ

---

(١) يبأى : يفخر . والسوسان ، أى : السوسن . والشقائق : شقائق النعمان ، وهى نبات أحمر الزهر فيه نقط سود .

(٢) الأصل : « أأصبع » .

تم ماجمع فى هذا التأليف من أخبار فتح الأندلس وأمرائها .

والحمد لله حق حمده ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعبده .

فهـارس الكتاب

وتنتظم :

— أ —

فهرست الأعلام

(١) جاء فى (ص : ٣٢) باسم : هشام ، تحريف .

(١) ورد فى بعض المواضع باسم : يوسف بن عقبة .

— ٢ —

فهرست القبائل

---

(١) جاءت كلمة (اليمن) مرادا بها اليمانيون فى الأكثر من هذا الكتاب ، ولها وجه ، إذ يقال إن العرب لما تفرقت نزلت بنو يمن تلك الأرض فسميت بهم . (معجم البلدان : يمن) .

— ٣ —

فهرست الأماكن

— ٤ —

فهرست الأيام

— ٥ —

فهرست الشعراء

— ٦ —

فهرست القوافى

— ٧ —

مراجع الكتاب

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى .

تاريخ ابن خلدون .

التكملة لابن الأبار .

الحلة السيراء لابن الأبار .

ديوان أبى نواس .

السيرة لابن هشام .

صفة جزيرة الأندلس للحميرى .

معجم البلدان لياقوت .

المعرب للجواليقى .

نفح الطيب للمقرى .

وفيات الأعيان لابن خلكان .